

القرآن وتذوق الإغراب اللفظي

أ. سعد حمادة

جامعة الوادي

ملخص:

حين نلقي نظرة على الآراء النقدية حول مميزات الكلمة الأدبية، يتبادر إلى أذهاننا أنها ترفض الإغراب، وتبعده عن أساليب التعبير الفنية، وتعتبره خللاً فنياً يؤثر سلباً في عملية الإبداع الأدبي.

غير أننا، حين نلاحظ إقبال العلماء من لغويين وبلاغيين على جمع و تفسير الغريب في الخطاب القرآني والنبوي أوفي الخطاب الشعري، نجد أنفسنا بحاجة إلى مراجعة فهمنا لما ذهبوا إليه من أحكام نقدية ونظريات جمالية، وهذا ما يبرز لنا اهتمامهم به واستساغتهم لاستعماله، وليس أدل على ما حظي به الغريب من اهتمام وعناية، من كونه «أول ما ظهر من فنون التأليف اللغوي»¹ فقد بدأ في وقت مبكر، يعود إلى النصف الأول من القرن الأول الهجري.

Resumé

Quand on jette un regard sur les critiques faites sur les caractéristiques du mot littéraire, on constate qu'elle refusent toute étrangeté, et l'éloignent des styles et expressions esthétiques, en considérant une faute influant négativement la créativité littéraire.

Toutefois, Quand on voit que maints linguistes et grammairiens se sont beaucoup intéressés à la collection et l'explication des termes étrangers dans le discours coranique, prophétique ou même poétique on se trouve dans l'obligation de réviser leurs opinions critiques et théories esthétiques. En étant le premier art de la production langagière m'apparaître durant la première moitié du premier siècle de l'hégire, ceci traduit parfaitement cette importance et cet intérêt.

و الحق أن هذه التأليف، رغم كثرتها، ورغم اعتقادنا بأنها ترمي إلى تحقيق هدف جمالي، وهو استئناس الظواهر اللغوية الغربية، وترويض الذوق العربي على قبولها و التفاعل معها، فإنها لم تجاوز التفسير المعجمي لها، لأن هذا الهدف الفني محصور في إطار خاص، وهو التمكن من فهم غريب القرآن

و الحديث، وإعداد المتلقي العربي للتكيف مع المفردات القرآنية الجديدة التي «قد تكون مأخوذة من لغات متفرقة، أو مستعملة على وجه من وجوه الوضع يخرجها مخرج الغريب.... مما نُقل عن مدلوله في لغة العرب إلى المعاني الإسلامية المحدث، أو

يكون سياق الألفاظ قد دلّ بالقرينة على معنى معين غير الذي يفهم من ذات الألفاظ»² لهذا لم يلجأ العلماء إلى الكشف عما تتميز به هذه الألفاظ من سمات جمالية، لأن الذوق العربي آنذاك لم يزل بعد محتفظاً بنقاؤه وسلامته من التشوّه الذي أصيب به حين اختلط العرب بغيرهم من الشعوب فتسربت العجمة إلى الألسنة والفساد إلى الحسّ الفني .

ولكي نتمكن من الكشف النظرة الجمالية لدى النقاد و البلاغيين للإغراب ، يجدر بنا أن نعرض بعض الآراء ذات الطابع النقدي التي تكشف طبيعة الحسّ الجمالي العربي وموقفه من جمالياته في الخطاب القرآني و الشعري

1- غريب القرآن وأثره في تحديد النظرة الجمالية العربية للإغراب .

لقد كان للخطاب القرآني أثر كبير في تحديد النظرة الجمالية لعناصر الخطاب الفني العربي ، نظمته ونثره ، فالعرب حين تحداهم القرآن بأسلوبه الفريد ، وأعجزهم عن أن يأتوا بمثله ، وتأكد لهم استحالة ذلك ، توجهوا إلى البحث عن أسرار بلاغته انطلاقاً من مقارنته بالقوالب الفنية والأشكال التعبيرية التي كان بلغاؤهم يتنافسون في إبداعها وهذا ما مكّنهم من إكتشاف الطرق الفنية والأغراض الجمالية لهذه الأشكال. ولعلّ أبرز موقف يمكن اعتباره حكماً نقدياً انطباعياً انطلق من هذه المقارنة ، هو موقف الوليد بن المغيرة حين طلب منه سادة قريش أن يعرض بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ويؤكد بغضه للقرآن الكريم ، فكان جوابه يحمل اعترافاً بغرابة الأسلوب القرآني وقدرته على توظيفه العناصر اللغوية توظيفاً فنياً يخالف ما ألفه العرب ، منطلقاً في ذلك من خبرته بفضن القول ، حيث قال « و الله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزهشكال التعبيرية أ ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، و الله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، و الله إن لقوله الذي يقول لحلاوة ، وإنه ليعظم ما تحته و إنه ليعلو وما يعلو»³ وفي الرواية التي نقلها السيوطي في الإتقان « وإنه لمثمر أعلاه ومغدق أسفله»⁴

إن قول ابن المغيرة يحدّد نظرة جمالية لأسلوب القرآن تتضمن إقراراً بثناء العناصر التعبيرية

و الدلالية التي تشكّل الخطاب القرآني وهذا ما تحلينا إليه عبارتنا : «مثمر أعلاه ومغدق أسفله» كما تحلينا عبارات : «ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا» و « يحطم ما تحته » و « يعلو ولا يعلو» إلى مخالفة القرآن للأنساق التعبيرية في استعاله للعناصر اللغوية التي ألف العرب التعامل معها .

أما العبارة التي توضح بجلاء شعور ابن المغيرة بالأثر الجمالي الذي حققه الخطاب القرآني أثناء تلقيه له ، فهي عبارة «إن لقوله الذي يقول لحلاوة» ، والحلاوة سمة جمالية في الخطاب الفني اشترطها النقد ليتوفر فيه عنصر الجمال ، وتكرر كثيرا في آراء النقاد فيما بعد بأسماء مختلفة مثل: العذوبة، السلاسة كثرة الماء وغيرها . وكلها تشير إلى ما يحققه الكلام من متعة فنية في نفس المتلقي . والطريف أن ابن المغيرة حين لأمه قومه على هذا الاعتراف واتهموه بالتأثر بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم قدم اعترافا آخر لا يقل دلالة على تأثره بالخطاب القرآني وما تمتلك عناصره من طاقة إيحائية وجمالية حين قال ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾⁵

ومهما يكن غرض ابن المغيرة من هذا الوصف ، فإنه يتضمن إقرارا بالأثر الجمالي الذي يحققه القرآن في المتلقي ؛ لأن العاجز عن تفسير آية ظاهرة طبيعية كانت أم فنية أم في أي مجال ويسعى إلى التفسير الغيبي لهذه الظاهرة ، ثم إن سحر البيان أمر معترف به ، وقد أقر به الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال: « إن من الشعر لحكمة وإن من البيان لسحرا »⁶.

ونستطيع اعتبار هذا الموقف دليلا على عدم رفض الذوق العربي للأشكال التعبيرية التي تمتلك سمات جمالية رفيعة ، حتى وإن لم تكن مألوفة في الخطاب الفني الذي اعتاد التعامل معه.

2- موقف النقد العربي من المفردة القرآنية الغريبة :

ولئن كان موقف ابن المغيرة يجسد حكما عاما على مستويات الخطاب القرآني الصوتية و الدلالية ، فإن موقف سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يجسد نظرة جمالية للفظ الغريبة في القرآن الكريم ، ذلك أنه حين قرأ قوله تعالى ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا، وَعِنَبًا وَقَضْبًا، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ، وَحَدَائِقَ غُلْبًا، وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾⁷ قال : «كل هذا قد عرفنا ، فما الأب ؟ ! ثم رفض عصا كانت بيده وقال : هذا لعمر الله التكلف ! وما عليك يا ابن أم عمر ألا تدري ما الأب ؟ ثم قال : اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب وما لا فدعوه»⁸

إن مدلول اللفظ الذي وقف عنده سيدنا عمر واضح لدى القارئ المتسرع الذي لا يهتم سوى المعنى المعجمي ، لأن الفعل (أنبتنا) يحيل إليه: فالأب ، نوع من أنواع النبات الذي يصلح غذاء للإنسان أو الحيوان . و الذي يرجح أن يكون معناه الدقيق معروفا في لغة من اللغات المنشرة في الجزيرة العربية ، ولهذا فإن معرفته - لو كان يشكل عائقا فنيا أو دلاليا - لا تتطلب من سيدنا عمر أكثر من سؤال أو رسائل يبعث بها إلى عماله ليبحثوا عن مدلول (الأب) وعن اللغة التي تستعمل هذه المفردة ، ولكن فيما يبدو من

خلال تجاوزه لها ثم حثه على تجاوز الألفاظ القرآنية أن الملكة الجمالية التي يتصف بها الفاروق، والتي اكتسبها من بيئته العربية الخالصة، قد تحركت «ووجهته إلى أن استعمال هذه اللفظة الغربية رغم وجود لفظة مألوفة تشاكلها في إيقاعها وهي لفظة (عشبا) تخفي بعدا فنيا يجدر بالقارئ أن يتوقف عنده ويستشعر إحياءاته دون أن يبحث عن مدلولها المعجمي» «لأن المفردات اللغوية لا تبقى حبيسة داخل إطارها المعجمي»⁹ (في الخطاب الفني) «فإنه يتعامل معها بشكل مختلف «ويعطيها القوة الانفعالية و التأثير الشعوري العميق»¹⁰

قد يكون سبب إعراض سيدنا عمر عن تفسير هذه اللفظة هو تعدد قراءاتها لذلك لم يجزم بتحديد معناها الدقيق خوفا من مجانبة الصواب في التفسير، وهذا ما ذهب إليه صاحب البرهان في علوم القرآن وقد بين أوجه الدلالة التي ذهب إليها المفسرون لها.¹¹

وذهب الشيخ الطاهر بن عاشور إلى نفس الرأي، حين برر إعراض عمر رضي الله عنه عن تفسير هذه اللفظة محتملا أن تكون متعددة المعاني «منها النبت الذي ترعاه الأنعام، ومنها يابس الفاكهة»¹² كما احتمل غرضا جماليا آخر وهو الانسجام الإيقاعي الذي عبر عنه بـ (رعاية الفاصلة) فقد تكون هذه اللفظة من الألفاظ التي أهملها اللسان العربي لسبب من الأسباب مثل انقطاع الأب عن البيئة العربية، أو استبدالها بلفظة أخرى... أو غير ذلك من الأسباب التي تؤدي إلى انتقال بعض الألفاظ من مجال المألوف إلى الغريب، ثم جاء القرآن ليبعث فيها الحياة من جديد فيكسوها سمات جمالية تجعل الذائقة العربية تألفها وتشعر بحلاوتها في سياقها.

وقد ذهب جلّ النقاد إلى أن اللجوء إلى استعمال اللفظ الغريب من أجل تحقيق الانسجام الإيقاعي لا يكون إلا بعد تعدد تحقيق اللفظ المألوف لذلك، ولو كان الغرض الجمالي لهذه اللفظة هو مجرد رعاية الفاصلة أو تحقيق الانسجام الإيقاعي لكانت لفظة (عشبا) - وهي البديل المشاكل للفظة المستعملة - أولى خاصة وأنه لا يشكل عائقا دلاليا ولا جماليا، وهذا ما يدعو إلى الاعتقاد بأن استعمال (أبا) يرمي إلى تحقيق غرض جمالي آخر، إضافة إلى الغرض الإيقاعي.

وقد ذهب سيد قطب إلى أن «هزة القلب وإيقاظه هدف في ذاته يتجراه الخطاب القرآني بوسائل شتى»¹³ و اللفظ الغريب هو إحدى هذه الوسائل، إذ أنه - أي اللفظ الغريب - قد يقصد لغرابته¹⁴ فهي التي تجعله غنيا بالدلالات الإيحائية التي تنقل المتلقى من عالم الواقع إلى عالم وجداني تصوره الألفاظ الغربية. فلفظة (أبا) وردت في سياق الحديث عن نعمته الرزق التي تكفل الله تعالى وحده بتوفيرها للبشر وهذه النعمة هي

من النعم الجليلية التي لا يستطيع الإنسان أن يدرك بعقله عظمتها ، فجاء الخطاب القرآني بها لتنسجم مع خفاء هذه العظمة .

ولعل في تعليق الزمخشري على قول سيدنا عمر تأييد لهذا الفهم حينما رأى بأنه»..أراد أن الآية مسوقة في الامتنان على الإنسان بمطعمه واستدعاء شكره ، وقد علم من فحوى الآية أن الأب بعض ما أنبته الله للإنسان متاعا له أو لأنعامه فعليك بما هو أهم بالشكر لله على ما تبين لك ولم يشكل مما عدد من نعمه.»¹⁵

ويمكن اعتبار التساؤل الذي طرحه سيدنا عمر عن معنى (الأب) إشارة انطلاق إلى البحث عن تأويل غريب القرآن والحديث ، فقد صنف العلماء كتباً ترصد ما جاء فيهما من ألفاظ أو تراكيب غريبة قبل نشأة الحركة النقدية بعدة قرون غير أن الخوف من الخوض في تأويلها بقي هو الطريقة التي تعبر عن المواقف الجمالية لهذه الظاهرة . فقد سئل الأصمعي عن قوله تعالى ﴿...قَدْ شَغَفَهَا حُبًا...﴾¹⁶ فسكت وقال: « هذا في القرآن ، ثم ذكر قولاً لبعض العرب في جارية تقوم أرادوا بيعها :أتبيعونها وهي لكم شغاف! ولم يزد على هذا »¹⁷ . فالأصمعي الذي عرّف بتبحره في اللغة وخبرته بغريبها لا يمكن أن تغيب عنه الدلالات المعجمية لهذه اللفظة ، والا فكيف يربط بينها وبين القول الذي نقله لبعض العرب! إذ من المرجح أن يكون إعراضه عن تفسيرها ناتجا عن خشيته من قتل الطاقة الإيحائية التي تحملها هذه اللفظة حين أحس بأنها تحمل هذه الطاقة ، وعلم أنه لو فسرها لَعَجَزَ عن نقل ما منحها القرآن من قدرة تعبيرية.

وقد حاول الزمخشري أن يفسرها مع الحفاظ على ما فيها من هذه القدرة فقال

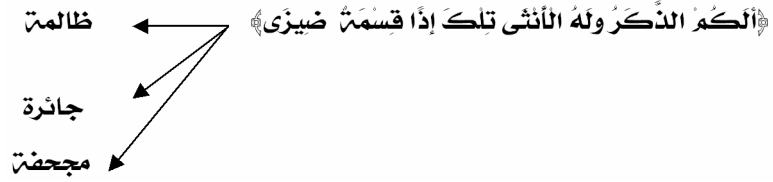
﴿شَغَفَهَا حُبًا﴾ أصاب به شغافها وهو غشاء القلب وغلافه وهو جلدة ألبسها»¹⁸

وبهذا يشير إلى ما توحى به لفظته (شغفها) من طاقة إحيائية ودلائية ماثلة في تمكّن الحب واستحواذه على (قلب امرأة العزيز واختراقه للشغاف ، الذي هو بمثابة اللباس الواقى للجسم من أي مؤثر خارجي.

وقد اهتدى ابن الأثير إلى إمكانية تحقيق الحوشى لأغراض جمالية بعد أن أجرى (فحصه الاستبدالي) حسب مصطلح رولان بارت: وهو الذي يتحقق « بتغيير الدال (الكلمة) بإحلال بدائل عنه في سلسلة الاختيار لنرى أثر ذلك في توجه الجملة من حيث دلالتها ومن حيث إيقاعها»¹⁹

أجرى ابن الأثير هذا الفحص على لفظة .(ضيزى) الواردة في قوله تعالى ﴿الْكُمُ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذَا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾²⁰ فتوصل إلى أن هذه اللفظة رغم غرابتها ، فإن بدائلها ، وإن كانت مألوفا لا يمكن أن تسد مسدّها في فصاحتها ، وفي تحقيقها للانسجام الإيقاعي ، لأنها وردت في سورة النجم المسجوعة على حرف الياء ، ولو استبدلت

بأحد بدائلها وهي ، جائرة ، أو ظالمة أو مجحفة « لم يكن النظام كالأول » 21 ويمكن أن نمثل لما قام به ابن الأثير:



و الكلام نفسه يمكن أن يقال في قوله تعالى:

﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾ 22

وقوله تعالى:

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ 23

وقوله:

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبَّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ 24

وقوله:

﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعَنْبًا وَقَضْبًا....وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ 25

فالألفاظ الغربية التي وردت في هذه الآيات وهي: (دُسْر - سَرِيًّا - قَمْطَرِيرًا - أَبًّا) حققت الانسجام الإيقاعي الذي يقصده الخطاب القرآني لذاته «بل إنه في سبيل تحقيقه يترك مألوف الاستعمالات اللغوية إلى نادرها... ليحقق بذلك التناغم الصوتي، ولا يكون من وراء ذلك إلا إضافة عنصر من عناصر الجمال» 26 و الملاحظ في هذه الألفاظ جميعا أنها وردت في سياق الحديث عن مواقف مثيرة للاستغراب، لفظت (ضيْرَى) وردت في سياق الحديث عن غرابة القسمة لذا ف «إن غرابة هذه اللفظة من أشد الأشياء ملاءمة لغرابة هذه القسمة» 27 ولفظة (دسر) وردت في سياق الكلام عن سفينة نوح عليه السلام التي تحدث الطوفان بمشيئة الله تعالى واستيعابها للخلق الكثير رغم ضعف موادها (ألواح ودسر) ، أما لفظة (سريا) فقد وردت في سياق الحديث عن معجزة ميلاد سيدنا عيسى وما أحيط بها من معجزات توفير المأكل و المشرب لأمه العذراء عليهما السلام ، ونطقه وهو في بطن أمه ثم في المهد...

وهنا يمكننا القول بأن غريب القرآن يحقق الانسجام و التناسق الفني بينه وبين مستويات الخطاب القرآني.

وقد ذكر الزركشي أشني عشر موضعا خرج فيها الخطاب القرآني عما ألفه العرب من نظم الكلام من أجل المناسبة في مقاطع الفواصل - و المقطع هو نهاية الفاصلة - منها زيادة حرف مثل:

﴿فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ 28 ﴿أَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ 29 « لأن مقاطع الفواصل في هذه السورة أَلِفَاتٍ منقلبة عن التنوين في الوقف » 30 لذلك لجأ الخطاب القرآني إلى مخالفة القياس - الذي يعد حسب معايير البلاغيين - من الظواهر المُخَلَّطَة بوضاحتها اللفظ ، وهذا بزيادة الألف على آخر الاسم المعروف بـ "ال" ليحقق بذلك التناسب في نهاية الفواصل.

وقد يذهب بنا الظن ،حين نلاحظ وقوع الألفاظ الغربية الواردة في الأمثلة في مقاطع الفواصل ،إلى أن وظيفة الغريب في الخطاب القرآني منحصرة في رعاية الفاصلة ،وأن ورودها ضرورة إيقاعية لا غير. ولكن هذا الظن يزول حين نجد ألفاظا قرآنية غريبة في مواضع مختلفة من الفواصل مثل: (قطننا) في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ 31

و(تفتهم) في قوله تعالى ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذْرَهُمْ وَلِيَطَّوِّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ 32، ولفظة (أغطش) من قوله تعالى: ﴿وَأَغْطِشْ لَيْلَهَا وَأَخْرِجْ ضَحَاهَا﴾ 33 وبالعودة إلى المعاجم و التفسير يتبين لنا أن لهذه المفردات بدائل لغوية شائعة؛ فالقِطُّ: هو

« الكتاب وقيل الحظ والنصيب» 34 و(التفت) « وهي كلمة لم يَجِئْ فيها شَعْرٌ يُحْتَجُّ به - هو نتف الشعر وقص الأظافر، وتَنَكَّبُ كل ما يحرم على المُحْرَم....وقيل ذهاب الدرن والوسخ مطلقا.» 35

أما لفظة (أغطش) « قال ابن عباس أغطش ليلها أظلمه. (وأغطش ليلها وأخرج ضحاها) أي جعل ليلها مظلمًا أسود حالكا ونهارها مضيئًا مشرقًا نيرا.» 36 ولم أقف على نص يفسر الأثر الجمالي للفظ (تفت) ولا لفظة (قِط) غير أن قراءة تذوقية سريعة، تبرز لنا ما لها من طاقة دلالية ثمكٌ من تكثيف المعنى و إيجازه. فلفظة " تفت " تضم عدة أفعال يقوم بها المُحْرَم، ولو حاولنا توظيف البديل اللغوي لهذه اللفظة لكانت العبارة وليفعلا ما كان محرما عليهم فعله، أو وليتحللوا من الإحرام فإن القارئ العادي يتبين الفرق الشاسع بين التعبير القرآني وهذه البدائل نا هيك عن القارئ المتذوق . وتكون العبارة أقبح لو استعملنا الأفعال الواردة في الشرح أي نتف الشعر وقص الأظافر....هذا إضافة إلى فقدان الانسجام الإيقاعي الناتج عن تشاكل الصوت بين (يقضوا/يوفوا)

و(تفتهم/نذرهم) في حالة استبدال اللفظة.

ويمكن أن يشعر القارئ بالتناقض الفني بين لفظة قطننا و سياقها ؛فبالإضافة إلى قدرتها التعبيرية على تمسك الكفار بأخذ نصيبهم كاملا في الدنيا بسبب ما توحى به لفظة (قط) من دقة في التقسيم ،فإنها تحقق تساوي المقاطع الصوتية .باستثناء (عجل لنا) وهذا ما يشيع في الآية نغما مؤثرا (رَبَّنَا / قِطْنًا / قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) هذا بالإضافة إلى تكرار حرف النون الممدودة في الألفاظ (ربنا، لنا، قطننا) .
أما لفظة (أعطش) فقد ذهب سيد قطب إلى أنها أكثر تعبيرا عن شدة الظلمة من الفعل أظلم³⁷ وهذا ما يتناسب مع تخويف الكفار من عقاب الله و تنبيههم إلى قدرته عليهم .

3- النقد العربي و التراكيب القرآنية الغربية؛

ولم يكن اهتمام النقاد و أصحاب الذوق الفني قاصرا على الألفاظ القرآنية الغربية.إنما كان إعجابهم بالصياغة و التراكيب الغربية التي يقل استعمالها في اللغة العربية ، و يطول بنا الكلام لو استقصينا جميع الصيغ القرآنية الغربية ،سواء أكان ذلك على مستوى المفردة مثل صياغة الجمع من فَعِيل على فَعَلَ . كسَرِير، سُرُر، أو على مستوى الجملة مثل تأخير الاسم الظاهر على الضمير العائد عليه كقوله تعالى ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾³⁸ أو على مستوى الإعراب كقوله ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ أَعْلَى﴾³⁹ وكل ذلك من أجل تحقيق الانسجام الإيقاعي -كما أشرنا- .

وكان إعجابهم بصياغة الخطاب القرآني للصورة الغربية التي خرج فيها عما شاع استعماله دافعا إلى البحث عن القيمة الدلالية و الفنية التي تشع بها .ومدى إسهامها في تحقيق التناسق الفني الذي ابهر فصحاء العرب فكما كان منطلقهم في تأويل المفردات القرآنية الغربية مرتكزا على ما أنتجه العرب من فنون الخطاب الأدبي التي شاعت عندهم ، اعتمدوا هذا المنطلق في تأويل مجاز القرآن.وهذا ما جعلهم يكتشفون ما في الخطاب الشعري من صور بديعة تساهم في إثرائه وتجعل المتلقي يتفاعل وجدانيا ونفسيا مع ما يحمله من شحنة جمالية وفنية وما ترمي إليه من أبعاد دلالية ونفسية.فمثلما أشارت الألفاظ القرآنية الغربية حركة التأليف في تأويل المفردات الغربية،فإن غرابة الصور القرآنية وجهت العلماء إلى التأليف في معاني القرآن الكريم،فقد جاء في كتاب (معجم الأدباء) لياقوت الحموي أن أبا عبيدة معمر بن المثنى ألف كتابه مجاز القرآن نتيجة استغراب الناس مخالفة القرآن لما ألفه العرب من تشبيهات⁴⁰ في قوله حين وصف شجرة الرقوم ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾⁴¹.

وهكذا نبّه من جاء بعده من النقاد والبلاغيين، إلى الأثر الجمالي الذي تحقّقه مثل هذه الصّور، فتوجّهوا إلى استقصاء بقيّة الصّور القرآنيّة الغربيّة وتأويلها وإبراز الأبعاد الجماليّة التي ترمي إليها.

وقد كانت هذه الصّورة التي انطلق منها أبو عبيدة، مثار اهتمام النقاد والبلاغيين إذ حاول الكشف عمّا تحمله من طاقة تعبيرية، وما تحقّقه من قوّة تأثيريّة في المتلقّي. فذهب الجاحظ إلى أنّ لها قدرة إيحائيّة هائلة تنتج عمّا رسخ في أذهان النّاس من «استقباح صور الشّياطين، واستسماجها وكراهيتها، وأجرى على السنّة جميعهم ضرب المثل في ذلك رجع بالإيحاش والتّنفير وبالإخافة والتّفزع»⁴²، وقد اتفقت تأويلات النّقاد لهذه الصّورة، فالمبرد أشار إلى تداعي صورة الشّياطين بكل ما فيها من شناعة مُتخيّلة ناتجة عمّا أودعه الله في قلوب البشر من النّور والخوف من رؤية الشّياطين فكان لذلك تأثيره النّفسي والوجداني على المتلقّي⁴³، أمّا ابن سنان الخضاجي فقد استنتج - قياساً على هذه الصّورة - صحّة تشبيه المحسوس بالمتخيّل مثل تشبيهه «وجه بوجه الحور... وإن كانت الحور لم تُشاهد»⁴⁴، وهكذا أَلَفَ الذّوق العربي ما كان نافراً منه، وأنس الصّور الشعريّة التي خرج فيها أصحابها عن الأساليب الفنّيّة التي تعود الذّوق العربي على التّعامل معها، وحاولوا تأويلها والكشف عن مواطن الجمال فيها، إذ نجد ابن رشيق حين يعرض لما تشيره هذه الصّورة من تخويف من هول العقوبة، وشناعة المنظر الذي يتّصف به ما يُقدّم لأهل النّار من طعام مقابل ما يُقدّم لأهل الجنّة بطريقتة توحى بالثّكريم، وتثير الارتياح، ثمّ يُعقب على ذلك بقول امرئ القيس:

أَتَقْتُلُنِي وَ الْمَشْرِفِيُّ وَ مَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كَأَثْيَابِ

أَغْوَالِ

مُضَاجِعِي

و قول أبي تمام :

وَأَحْسَنُ مِنْ نُورٍ يَفْتَحُهُ بَيَاضُ الْعَطَايَا فِي سَوَادِ

الْمَطَالِبِ

النَّدَى

فإذا كانت الصّورة التي وظّفها (امرؤ القيس) موحية بما تشيره نصال الثّبل من خوف، وما تحمله من بطش فإنّ الصّورة التي وظّفها أبو تمام توحى بما يثيره الجود من ارتياح .

وهكذا يتبيّن لنا الدور الأكبر الذي لعبه تعامل العلماء مع ظاهرة الإغراب القرآني في توجيه الذائقة العربيّة إلى اكتشاف السّمات الجماليّة والقدرة الإيحائيّة التي تمتلكها هذه الظاهرة، غير أنّ انطلاقهم في دراسة الإغراب في الشعر من المقارنة بين النّسق القرآني ولأنساق الفنّيّة الأخرى، كشف لهم التّناسق الفنّي المُعجَز بين هذه

الظاهرة وبين بقية العناصر الأسلوبية في القرآن، مقابل قصور الشعراء على بلوغ هذا المستوى من التناسق، فاستهجنوا اللجوء إليها في الشعر والنثر، لبروز سمة التصنع والتكلف فيه.

الهوامش:

- ¹ _ الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث: محمد حسي آل ياسين، دار مكتبة الحياة، بيروت لبنان 1400هـ/1980م ص146.
- ² إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي (د ط) دار الكتاب العربي، (د ت)، ص72.
- ³ تفسير القرآن العظيم: الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير، ط3 دار الأندلس للطباعة والنشر 1401هـ 1981م، ج7 ص158.
- ⁴ الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، د ط، المكتبة الثقافية، بيروت 1973م، ج2، ص117.
- ⁵ المدثر الآية 24.
- ⁶ الحديث رواه عازم عن أبي عوانة عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس أنظر الأدب المفرد: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، ط3 دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1409هـ 1983م، ص301.
- ⁷ عبس الآية 27 إلى 31.
- ⁸ الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم القرآن: الزمخشري، ج4، (د ط) دار المعرفة- بيروت، لبنان، دت، ص186/187.
- ⁹ الشعر بين الرؤيا التشكيل: عبد العزيز المقالح، ص400 (ط3) دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر 1985م.
- ¹⁰ نفسه: ص400.
- ¹¹ ينظر البرهان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، ج2/ (ط3) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان 1400هـ 1980م، ص117.
- ¹² تفسير التحرير والتنوير: الشيخ الطاهر بن عاشور ج/30، الدار التونسية للنشر والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984م، ص133.
- ¹³ في ظلال القرآن: سيد قطب، ج6 (ط11) دار الشروق، بيروت، 1405هـ 1985م، ص3812.
- ¹⁴ ينظر المرجع نفسه: ص3812.
- ¹⁵ الكشاف: ج4، ص187.
- ¹⁶ سورة يوسف - من الآية: 30
- ¹⁷ البرهان في علوم القرآن: ص295.
- ¹⁸ الكشاف: ج2، ص252.
- ¹⁹ المرايا المقعرة: نحو نظرية نقدية عربية: ص254.
- ²⁰ النجم - الآية (21-22)
- ²¹ المثل السائر: ج1، ص228.
- ²² سورة القمر - الآية (13).
- ²³ مريم: الآية (24)
- ²⁴ الإنسان: الآية: (10)
- ²⁵ عبس: من الآية: (27 إلى 31)
- ²⁶ الباقلائي وكتابه إعجاز القرآن: عبد الرؤوف مخلوف، دار مكتبة الحياة 1978م، ص240.
- ²⁷ نفسه: ص253.
- ²⁸ سورة الأحزاب، الآية (67)
- ²⁹ سورة الأحزاب، الآية (66)

- 30 البرهان في علوم القرآن: ج 1، ص 61/60.
- 31 سورة ص الآية (16)
- 32 سورة الحج الآية (29).
- 33 سورة النازعات الآية (29)
- 34 تفسير القرآن العظيم: ج 6، ص 50.
- 35 لسان العرب: ج 1، مادة (تفت).
- 36 تفسير القرآن العظيم: ج 7، ص 208.
- 37 في طلال القرآن: ج 6، ص 3816.
- 38 سورة طه الآية (67).
- 39 سورة طه الآية (63).
- 40 ينظر، النقد والدراسة الأدبية: د / حلمي مرزوق ، ط 1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، 1402هـ - 1982م، ص 43
- 41 سورة الصافات الآيتان (64/65).
- 42 الحيوان: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ج 1، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط 2، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده مصر 1385هـ/1966م، ص 40/39.
- 43 يُنظر الكامل لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، ج 3، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 1، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، 1418هـ / 1998م، ص 68.
- 44 سر الفصاحة: ابن سنان الخفاجي، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، 1402هـ - 1982م، ص 225.
- 45 ديوان امرئ القيس: ص 47.